حكاياتٌ دعويّة
(٣)

حكايةُ عِقدِ اللّؤلُؤ!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

حكايةُ عِقْدِ اللؤلؤ!!

سمع (معتز) من خطيبِ الجمعةِ هذه الحكايةَ التي فيها الحكمُ والعِبَرُ ، فلما عادَ إلىٰ البيتِ ، كَتَبها علىٰ دَفْترِهِ الخاصِّ .

وفي السَّهْرةِ ، وعندما اجتمعَ الأصدقاءُ في بيتِ (مأمون) ، قرَّرُوا أن يَسْتَغِلّوا الأوقاتِ بَدَلَ أَنْ يُضَيّعوها فيما لا فائدةَ منه...

فأَخرجَ (معتز) دفترَه من الحقيبةِ ، وقال لأصدقائِه : أُريدُ أَنْ أَحكيَ لكم حِكايةً هادفةً ، فهلْ تُوافقونَ علىٰ هذا الاقتراحِ؟

رحَّبَ الشبابُ بالفكرةِ ، فراحَ يحكي لهم الحكايةَ :

قال القاضي أبو بكر محمدُ بن عبد الباقي الأنصاريّ رحمه الله تعالىٰ :

كنتُ مجاوراً بمكةَ المكرمةِ ، فأصابَني يوماً من الأيام جوعٌ شديدٌ ، لم أَجدْ شيئاً أَدْفَعُ به عني الجوعَ ، فوجدْتُ كيساً من الحرير ، مشدوداً بشُرّابةٍ من الحريرِ أيضاً ، فأخذتُه وجئتُ به إلىٰ بيتي ، فحَلَلْتُه فوجدْتُ فيه عِقْداً من لؤلؤٍ لَمْ أَرَ مِثْلَه .

فخرجتُ فإذا الشيخُ ينادي عليه : مَنْ وجد كيساً من الحرير..؟

فتقدَّمْتُ منه ، فإذا به يقولُ : وهذه الدنانيرُ الخمسمئة مكافأةٌ لمنْ يَرُدُّ علينا الكيسَ..

فقلتُ في نفسي : أنا محتاجٌ ، وأنا جائعٌ ، لماذا لا أَرُدُّ عليه الكيسَ ، وآخُذ هذا الذهبَ فأنتفعَ به؟!

فقلتُ للشيخ : تعالَ إليّ ، فأنا الذي قد وجدْتُ الكيسَ ، وهو عندي في البيت .

فأخذتُ بيدِ الرجلِ ، وسِرْنا إلىٰ البيت ، وهناك أعطاني علامَةَ الكيسِ ، وعلامةَ الشُّرّابة ، وعلامَةَ اللؤلؤ وعددَه ، والخيطَ الذي هو مَشْدودٌ به... فأخرجْتُ الكيسَ ودَفَعْتُه إليه .

فما كان منه إلا أن سَلَّمَني الدنانيرَ ، فرفضْتُ أن آخذَها ، وبرَّرْتُ ذلك بأنّ عملي لم يكنْ من أجلِ الجزاءِ ولا السُّمْعةِ ، إنما كان لوجهِ الله تعالىٰ .

وألَحَّ الرجل ، فرفضْتُ ، فتركني ومضىٰ بحالِه...

... ودارَ الزمنُ دورتَه ، فخرجْتُ من مكةَ المكرمة ، وركبتُ البحرَ... ولما كنا في لُجّتِهِ ، انكسر المركبُ ، وغَرِقَ الناسُ ، وهَلَكَتْ

أموالُهم ، وسَلِمْتُ أنا علىٰ قطعةٍ من المركب ، فبقيتُ مدةً في البحرِ لا أدري أينَ أذهَبُ...

فوصلتُ إلىٰ جزيرةٍ فيها قومٌ ، فقعدتُ في بعضِ المساجدِ ، فسمعوني أقرأُ ، فلم يبق في تلك الجزيرةِ أحدٌ إلا جاءَ إليَّ وقال : علِّمْني القرآنَ...

فحصل لي من أولئكَ القومِ شيءٌ كثيرٌ من المال...

قال : ثم إني رأيتُ في ذلكَ المسجدِ أوراقاً من مُصْحَفٍ ، فأخذتُها أقرأُ فيها ، فقالوا لي : تُحْسِنُ تكتبُ؟

فقلت : نعم ، إني أُجيدُ القراءةَ والكتابةَ .

فقالوا : عَلِّمْنا الكتابةَ والخطَّ ، فجاؤوا بأولادِهم من الصبيانِ والشَّبابِ .

فكنتُ أُعلّمُهم ، فحصل لي أيضاً من ذلك شيءٌ كثيرٌ..

فقالوا لي بعدَ ذلك : عندنا صَبِيّةٌ يتيمةٌ ، ولها شيءٌ من الدنيا ، ونريدُ أن تتزوَّجَ بها ، فامتنعْتُ...

فقالوا : لا بدَّ من ذلك ، وأَلْزموني ، فأجبتُهم إليْ ذلك .

فلما زَفُّوها إليّ رُحْتُ أَنْظُرُ إليها ، فرأيتُ أَمْراً عَجَباً :

وجدتُ ذلك العِقْدَ بعَيْنِه مُعَلّقاً في عنقِها ، فما كان لي حينئذٍ شُغْلٌ إلا النظرَ إلىٰ العِقْدِ .

فقال الحاضرون لي : يا شيخُ! كسرْتَ قلبَ هذهِ اليتيمةِ من نَظَرِكَ إلىٰ هذا العِقْدِ ولم تَنْظُرْ إليها!!

فَقَصَصْتُ عليهم قِصَّةَ العِقْدِ ، فصاحوا وصرخوا بالتهليلِ والتكبيرِ ، حتىٰ بلغ إلىٰ جميعِ أهلِ الجزيرة!

فقلتُ : ما بكم؟

فقالوا : ذلكَ الشيخُ الذي أَخَذَ منك العِقْدَ أبو هذه الصبيّة!!

لقد كان يقول : ما وَجَدْتُ في الدنيا مسلماً إسلاماً حقّاً إلا هذا الذي ردَّ عليَّ هذا العِقْدَ... وكان يدعو ويقول : اللهمّ اجمعْ بيني وبينَه حتىٰ أُزَوِّجَه بابنتي..

والآن قد حَقَّقَ اللهُ ذلك ، واستجابَ دعوتَه..

قال : وبقيتُ معها مدةً ، ورُزِقْتُ منها بولدَين ، ثم إنها ماتَتْ ، فوَرِثْتُ العقدَ أنا وولداي ، ثم ماتَ الولدان فحصل العقد لي ،

فبعتُه بمئةِ ألفِ دينار ، وهذا المالُ الذي ترونه معي من بقايا ذلك المالِ!!!

* * *

فإن الحقَّ أنطقها!!

... وأُعْجِبَ الشبابُ بالحكايةِ.. وصفَّقوا لصديقِهم (معتز) ، وتَحَمّسَ (سعيد) للفكرة ، فاقترحَ أن يكونَ مثلُ ذلك النشاطِ الثقافيِّ والمفيدِ في كلِّ اجتماعٍ لهم...

وفي اليوم الثاني التقىٰ الشبابُ في مَزرعةِ صديقِهم (نعمان)... ، وبعد مَرَحٍ ومُزاحٍ ، وسباحةٍ ولَعِبٍ... ، قال (سعيد) : فماذا عن النشاطِ الثقافي؟

أجابَه (محمود) : أرىٰ أن يكونَ دورُك في هذا اليومِ...

هزَّ (سعيد) رأسَه وقال : أنا لها.. لقد قرأتُ حكايةً من حكايات السابقين ، ولخّصْتُها لأُلقيها عليكم... فهل أنتم مستعدّون؟!

... وافق الأصدقاءُ... وراحوا يَسْتمعونَ إلىٰ الحكايةِ التالية :

جلسَ الخليفةُ (المأمون) يوماً للمَظالمِ ، وراحَ الناسُ يَدْخلونَ عليه واحداً تِلْوَ الآخر ، وكان إلىٰ جِوارهِ القاضي وقائدُ الشُّرَطَةِ..

وكان (المأمون) يستمعُ إلىٰ شِكايةِ الشخصِ ، ثم يأخُذُ رأيَ القاضي ، ثم يأمر قائدَ الشُّرَطَةِ بالتنفيذِ...

وفي آخر من تَقدَّم إليه بظُلامَتِه امرأةٌ عليها هيئةُ السَّفَر ، وعليها ثيابٌ رَثَّةٌ ، فأَذِنَ لها الخليفةُ بعَرْضِ شِكايَتِها .

فوقفتِ المرأةُ بين يَدَيْهِ ، ثم قالتْ : السلامُ عليكَ يا أميرَ المؤمنينَ ورحمةُ اللهِ وبركاته ، فنظر (المأمون) إلىٰ (يَحيىٰ بن أكثَم)... ، فأجابَ (يحيىٰ) : وعليكِ السلامُ يا أَمَةَ اللهِ ، تَكَلَّمي في حاجَتِكِ ، وأَوْجِزي ، فقالتْ :

يا خيرَ مُنتَصَفٍ يُهدىٰ له الرَّشَدُ
ويا إماماً به قد أَشْرَقَ البلدُ
تشكو إليكَ عَميدَ القومِ أرملةٌ
عدا عليها فلم يُتْرَكْ لها سَبَدُ[1]
وابتزّ مني ضِياعي بعد مَنْعَتِها
ظُلماً وفُرِّق منّي الأهلُ والوَلَدُ..

---

(١) أي : القليل .

فأَطْرَقَ المأمونُ رأسَه حيناً ، ثم رفعَه وقال :

في دونِ ما قلتِ زالَ الصبرُ والجَلَدُ

عنّـي وقُـرِّحَ منّـي القلـبُ والكَبِـدُ

هذا أوانُ صلاةِ العَصْرِ فانصرفي

وأَحْضري الخَصْمَ في اليومِ الذي أَعِدُ

والمجلسُ السّبْتُ إنْ يُقْضَ الجلوسُ لنا

نُنْصِفْـكِ منـه وإلا المجلـسُ الأحـدُ

... ولما كان يومُ الأحدِ ، جلسَ الخليفةُ (المأمون) لردِّ المظالمِ ، وأَخْذِ الحقوقِ.. فكان أوّلَ مَنْ تَقَدّمَ إليه تلكَ المرأةُ...

فقالت : السّلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةُ اللهِ وبركاتُه .

فقال الخليفةُ : وعليكِ السلامُ ، أينَ الخَصْمُ يا أمةَ اللهِ؟

فقالت : الواقفُ عندَ رأسِكَ يا أميرَ المؤمنين ، وأشارت إلىٰ ابنهِ (العباس)!!

فَتَعَجَّبَ الخليفةُ من ذلك ، ثم قال : يا أحمد بن أبي خالد! خُذْ بيدِه فأَجْلِسْهُ معها مَجْلِسَ الخُصومِ...

وأَدْلَتِ المرأةُ بحُجَّتِها... وقَدَّم (العباس) حُجَّتَه ، فراحَتِ المرأة تَرْفَعُ صوتَها علىٰ صوتِه...

فصَرَخَ بها رئيسُ الشُّرَطَة قائلاً : يا أمةَ الله! أو نسيتِ أنكِ بين يدي أميرِ المؤمنينَ (المأمون) ، وأنكِ تُكَلِّمين ابنَه (العباس)؟!

فاخْفِضي من صوتِكِ في حَضْرَتِهِمْ ، وإلا طَرَدْناكِ من المَجْلِس...

... فما كان من الخليفة إلا أن قال : دَعْها

يا أحمدُ ، فإن الحقَّ أَنْطقها وأَخْرَسَ العباس...

ثم قضىٰ لها بِرَدِّ ضَيعتِها إليها ، وأَمَرَ أن تُكْتَبَ لوالي بلدها رسالةٌ يوصي بها خيراً ، وبأن يَرْفَعَ الخراجَ عن ضَيعتِها إكراماً لجُرْأَتِها في الحقِّ ، ويُحْسِنَ معاونتَها ، وكذلك أَمَرَ لها بنفقةٍ كبيرة...!!!

فخرجتِ المرأةُ وهي تقول : لا يموتُ حقٌّ ووراءَه مُطالِبٌ...

... وعَلَّقَ (سامي) علىٰ ذلك بقولِه :

يا حسرتاه علىٰ مَنْ يُقَطّع أوقاتَه وأيامَه دونَ فائدةٍ ، ونحن مُطالَبون بالوسطيةِ والاعتدالِ ، والتوازنِ في كلِّ أمورِنا ، فكما أنّ للجسد حقاً... كذلك فإنّ للعقلِ حقّاً مثلَه...

والحمد لله رب العالمين

* * *